للانفصال عنها، اسمه وماضيه وشخصه. الا الأرض القادرة على منحه تجدد الفعل الدائم، يظل الانفصال عنها غير ممكن.

تواطؤ الأرض مع العاشق الفلسطيني، يدركه عدوه الذي يطارده، الكابتن بلاك، الضابط الانجليزي، ويعبر عنه بكلمات هي اقرب إلى الشهادة؛ إذ يقرر بعد احدى محاولاته القبض على عبد الكريم «كنت أقول لنفسي، وأنا عائد مع الخيبة والمرارة والتعب، إن الأرض ذاتها هي المتواطئة والشريكة، وانك كي تقبض على عبد الكريم عليك أولاً أن تلقي القبض على الارض...» (ص ٤٤٦،٤٤٧).

وتغيب الأرض في «الأعمى والأطرش»، لأن كلا الشخصين، أعمى وأطرش، يسقطان في معضلة البحث عن الحلول الفردية لمشاكلهما الذاتية، فيتوسلان الغيب وإرث سنوات الوهم الطويلة، قبل ان يكتشفا أن توسلهما يتكىء على جدار الوهم. لقد جاءا من أرض واحدة، من بقعة صغيرة محددة على الارض والخرائط، فاكتشفا معاً أن الغيب هو وهم.. «اثنان من طيرة حيفا، يلتقيان بالصدفة حول حبة فقع!» (ص٥٠١). لكن الارض، رغم غيابها، تظل حاضرة في الوعي، بل ان الأعمى يستمد من مثالها وعيه وحدسه.. «وعرفت، كما تعرف الارض أن عشبة ما ستنمو هنا، انني سأذهب» (ص ٤٧٨).

والأرض التي يتقمصها الانسان الفلسطيني، تطل في «برقوق نيسان» وقد تقمصته هي بدورها، فعندما يكتسي بدنها بزهر برقوق الربيع، تصبح مثل جسد رجل شاسع ثقبه الرصاص. انها لا تحتوى الشهيد في أعماقها فحسب، ولكن شكلها الخارجي يتجلى على هيئته.

هكذا تتبدى الأرض في عيني الرجل العجوز، والد الشهيد قاسم الذي ظل «منشغلاً بتلك الصورة الغريبة التي اقتحمته كأنها قذفت على رأسه بحجر: بدن الارض مثل بدن رجل مثقب بالرصاص، يتضرج بزهر البرقوق، ويكاد المرء يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته، ولا ريب أن قاسم بدا كذلك بعد هنيهات من سقوطه..»(٥٨٥).

الأرض هي ذروة العلاقات الحميمة للفلسطيني مع الاشياء. انها نقطة الدائرة التي انزلق عنها الفلسطيني في الانحناءة الهابطة في رحلة الغربة، وهي النقطة ذاتها التي يطمح للوصول إليها بارتقائه للانحناءات الصاعدة عبر الممارسة النضالية.

أن يشهد انغلاق الدائرة بوصول الفلسطيني إلى أرضه، كان هم غسان كنفاني في ممارسته السياسية وحلمه وطموحه. وأن يعبر عن رحلة الانسان الفلسطيني، عبر تفصيلات مسارها في محيط الدائرة من النقطة ذاتها: الأرض واليها، كان همه في ممارسته الفنية، رغم أن الفارق بين الممارستين هو مجرد فاصلة صغيرة وهمية لدى غسان كنفاني، روائياً ومناضلاً.

زمان الفلسطيني.. ومكانه

فرضت تجربة الاقتلاع والنفي القسري للفلسطيني عن أرضه، نوعاً من الخصوصية في علاقته مع الزمان والمكان..